ملامح الكتابة الصوفية في ديوان"جرس لسماوات تحت الماء" لراحل عثمان لوصيف

أ/ حياة حجاز أ/ زهر اليوم هطال
باحثة دكتوراه LMD أدب حديث ومعاصر
جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص:
تهدف هذه الدراسة في شقيها النظري والتطبيقي إلى استجلاء وانتشال معالم التجربة الصوفية في ديوان الراحل عثمان لوصيف، وصبر أغوارها في المتن الشعري العثماني، محاولين ملامسة هذه التجربة الإبداعية وليدة الصراع بين لحظتين ؛ لحظة ميلاد القصيدة تسبقها لحظة المخاض، التمنع ،والترفع ،عن الكشف والتجلي، إنها لعبة المتاهات الصعبة.
تجربة أقل ما يقال عنها أنها تقتات وتتغذى على خلايا " الطقوس الصوفية" في ارتمائها على مصطلحاتها ومناسكها التى لا تعرف قراراً ولا استقراراً، كما ترفض التحنيط والتثليج، وتتشبث بالغموض والتخييل كجسر غائر في سماء التجربة الإبداعية،عالم متداخل كثيف شفاف اللفظ، مترامي الدلالات ؛ يُفهم ويصعب القبض عليه.
الكلمات المفتاحية: التجربة، الصوفية، المتن الشعري

تمهيد:
شهدت الساحة الأدبية النثرية منها و الشعرية، حركة تجديدية اتسمت هذه الأخيرة بدعوات رافضة للانسياق وراء الأشكال التقليدية، داعين في الوقت نفسه إلى ضرورة ركب الحداثة ومتغيراتها فتولدت عنها قضايا إبداعية شملت الشكل و المضمون، مقتبسين لهيب هذا الإبداع والتجديد من التراث تارة بالخوض في معالمه المعتمة والمناطق الساحرة ،و الغرائبية والمظلمة التى لم تطأها أشعة الشمس كالتجربة الصوفية، وتارة ناهلين معين الإبداع من قضايا مستحدثة كالأسطورة وماتوصل إليه علم النفس الحديث.
لقد أدرك الشعراء العرب المعاصرون بأن التجديد اصبح حاجة ملحة وبخاصة في هذا المناخ الذي يسوده التمرد والتغيير، الشعر الجزائري هو الأخر حظى بموجة تجديد،على مستوى الشكل والمضمون، "عثمان لوصيف" واحد من هؤلاء الذين حملوا لواء الإبداع متوشحاً التراث ممتطياً جواد الصوفية معلنا تفرده وتميزه.

أولا: **الكتابة الصوفية.**
قبل الشروع في خوض غمار الدراسة ارتأينا التطرق الى **مفهوم الكتابة** في الثقافة العربية،وفهم هذه العملية ليس بالامر الهين كونها عملية إجرائية تختزن تجربة انسانية تعبر عن مخاض العصر.

1- الكتابة

جاء في لسان العرب لابن منظورفي مادة"كتب" قوله:" كتب الشيء يكتبه كتباً وكتاباً وكتابة وكتّبه: خطه... الأزهري: الكتاب اسم لما كتب مجموعاً... والكتابة لمن تكون له صناعة، مثل الصياغة والخياطة.والكتبة: اكتتابك كتابا تنسخه ويقال اكتتب فلان فلانا أي سأله أن يكتب له كتاب في حاجة...وقيل كتبه خطه وقيل الكتاب ما أثبت على بنى آدم من أعمالهم والكتاب الصحيفة ، وقيل الكتاب مايكتب فيه، وسمي الكتاب كتاب لأنه يجمع الحرف" [1]

مما تقدم يتضح من التعريف اللغوي أن الكتابة هي التدوين والجمع والضم

وعن نشأتها وتاريخ ظهورها، نستشف تبايناً في الأراء منهم من أرجعها الى الحضارة المصرية انتشرت عبر التجارة الى اليونانيين فأدخلوها الى اللاتينية وأدخلها العرب إلى العربية، وعن زمن ظهورها ارجعها علماء الى القرن 1500 قبل الميلاد[2]

في حين يرجعها أدونيس إلى مهنة تدوين القرآن الكريم، ويرجح وجودها قبل هذه الفترة إلا أنه يقر بعدم وجود الكتابة العربية قبل القران الكريم، ويسمى الكاتب في هذه الفترة مدوناً أو ناسخاً[3]

بعيد عن فعل النسخ والتوين، مايهمنا في فعل الكتابة يتجاوز النسخ الى حالة من الإبداع والخلق، وعن هذا النوع من الكتابة فلم ينشأ إلا في القرن الثامن ووصلت الى درجة عالية من النضوج والتنوع مع المتصوفة، ذلك أن المعنى الحديث ليس المثقف وليس كل مايؤلف وينشر وإنما هو من يتمتع بموهبة الكتابة، ومن يكتب بشكل متميز ومن له رؤيا خاصة للعالم، وطريقة خاصة في التعبير عن هذه الرؤيا[4]

ومن هنا ركب الشاعر مغامرة التجريب، رافضاً أشكال الكتابة التقليدية، محاولين تأسيس مفهوم جديد للكتابة

والمتأمل لشكل الكتابة الشعرية الحديثة يلحظ الاختلاف عن إرهاصاتها الأولى، بفعل الانفلات من قبضة القصيدة النموذجية، ونلمس بوادر التجديد منذ العصر الجاهلي مروراً بالعصر الاموي فالعباسي غير ان الحركة التجديدية واضحة المعالم كانت في العصر الحديث مع القصيدة الحرة، أو مايسمى بشعر التفعيلة ومن دعاة هذا الشكل الجديد نازك الملائكة " وتؤكد بأن دعوتها الى الشعر الحر ليست لنبذ شعر الشطرين نبذاً تاماً، ولا هي تهدف الى أن تقضى على اوزان الخليل وتحل محلها ، وإنما كان كل ماترمي إليه إن تبدع اسلوبا جديدا توقفه الى جوار الأسلوب القديم وتستعين به على بعض موضوعات العصر المعقدة[5]

وعن رياضة التحولات الشعرية يرى النويهي" حين يستهلك الشكل الجديد كل إمكانياته،ويستوفي جميع مقدوراته،وحين إذن يبدأ في الخمول والتكرار،فلا يكون معنى هذا أن الوقت قد حان للارتداد عنه إلى الشكل القديم، بل يكون معناه ان الوقت قد حان للتقدم منه إلى أشكال أكثر جدة ومسايرة للأحوال التى ستنشأ وهكذا تمضي الامم"[6]

وعن فعل الكتابة ودوافعها فيرجعها بعض الأدباء ملاذا للتهوية والاسترخاء، وعن هذه التجربة يتحدث نزار قباني" في الكتابة ابحث عن شركاء يقتسمون معي بصورة عادلة ؛ فرحي وحزني، عقلي وجنوني، صحوي ومطري... مناخاتي الربيعية، ومناخاتي الاستوائية... وأخيرا ابحث عندما اكتب عن لغة تكون القاسم المشترك بيني وبين جيل عربي لا اعرفه"[7]

وعن دافع الكتابة عند"كوليت الخوري" تصرح:" كنت في الوقت ذاته في حاجة ماسة الى الصراخ... فقد صرخت إنما بأصبعي... ربما انا اكتب لأنني أخاف الموت[8]

الأمر سيان بالنسبة للشاعر محمود درويش ففعل الكتابة حقق له الخلود وهو القائل:

هزمتك يا موت الفنون جميعها
هزمتك ياموت الأغاني في بلاد
الرافدين مسلة المصري، مقبرة الفراعنة
وانتصرت وافلت من كمائنك[9]

وعن تجربة الشاعر صلاح بوسريف يراها إجبارا لا اختيارا يقول:" تلك اليد المحمومة، التي لا تتراجع ابدا، بل تذهب بلا هوادة ، صوب هذا القادم المعتم"[10]

أدونيس هو الأخر دعا إلى ضرورة تغيير نمطية الكتابة بقوله:" الدعوة الى تأسيس كتابة جديدة، إنما هي كذلك دعوة إلى تثوير الكتابة الشعرية، جذريا ومعنى هذه الثورة الشعرية أن المسألة فت تجديد الشعر ليست تغيير شكله وحسب او تغيير محتواه وحسب وإنما أيضا وقبل ذلك في تغيير معناه بالذات ، وبالتالي في تغيير النظرة اليه وطريقة فهمه"[11]

يرى محمد بنيس إن الكتابة:" تهدف إلى بلورة رؤية مغايرة للعالم تستمد من التأسيس والمواجهة بنيتها الرئيسية وبهذا تؤسس وتواجه داخل النص وخارجه"[12]

الكتابة عند الغذامي:" عمل تحريضي مضاد من خلال مسعاها الى تجاوز كل الاخرين ومحاولة نفيهم بواسطة اختلافها عنهم وتميزها عما لديهم"[13]

2-**الصوفية:**

جاء في لسان العرب لابن منظور: "صوف الصوف للضأن، وما أشبهه؛ الجوهري: الصوف للشاة والصوفة أخص منه، ابن سيده، الصوف للغنم، كالشعر للماعز، والوبر للإبل"[14]

يعد التصوف من أكثر المصطلحات تعقيدا، بحيث يستحيل معه تحديد مفهوم واضح المعالم، ولهذا فقد تضاربت الآراء حوله، فهناك من يرى أنهم سموا "الصوفية" لصفاء أسرارهن ونقاء أثارهم، يقول بشر بن الحارث:" الصوفي من صفت لله معاملته، فصفت لله عز وجل كرامته"[15]

إما أبو بكر الشيلي فيرى أن:" التصوف الجلوس مع الله بلاهم،... والصوفي هو الذي ينقطع عن الخلق فيتصل بالحق"[16]

ارتطمت أمواج الصوفية في مستهل الأمر بالحياة الاجتماعية، وسرعان ما نقلت صداها وعدواها إلى عوالم الشعر ، مبتكرين أسلوبا جديدا في الكتابة.

وممن أسهم في التأسيس لهذا النوع الجديد من الكتابة نجد الشاعر "عثمان لوصيف" من خلال التجربة الصوفية في ديوانه جرس لسماوات تحت الماء وهذا مانحاول استنطاقه.

معترفين بالتشابه الكبير بين حالتي المحاض والوجد الشعري إبان عملية الإبداع، فكلاهما يتخذ القلب والوجدان طريقة إلى منابع الالهام

ثانيا:تجليات الكتابة الصوفية

1- **العنونة**:لقد عنيت الدراسات الحديثة بالعنوان ، وأولته أهمية كبرى بعتباره أول ايقونة تصافح بصر المتلقى وتقذف به في غياهب المتن الشعري، وعن وظائف العنونة حددها جيرار جنيت:"الإغراء، الإيحاء، الوصف، التعيين"[17]

من خلال طبيعة المرجعية الإحالية للعنوان غالبا مايتصمن أبعادا تناصية، وبالتالي فهو دال إشاري وإحالي يكشف الغامض ويعلن قصدية المبدع[18]

استهل الشاعر عثمان لوصيف عنوان ديوانه بكلمة "جرس" تعد هذه اللفظة كلمة صوفية يراد بها إجمال الخطاب بضرب من القهر[19] وهذا ما تجسد فعلا في الديوان فالشاعر يطارد طيف القصيدة المتمنعة، يقول:

جرس أطارده فتختفي البروق[20]

غير ان هذا الخطاب مقرون بلفظة سماوات،ومايثير دهشة القارئ وقوع السماوات تحت الماء وهذا مايحدث مفارقة عجائبية يتحول فيها العلوي إلى سفلي بفعل الظرف"تحت"، غير مايهمنا هو صوت الجرس ، هل يسمع صداه تحت الماء؟ فالعنوان يشابه لحظة

البروق والرعود في اعلى السماء ليعقبها غيث ومعصرات، ينبت على أعقابها زرع ونبت ، حال ميلاد القيصيدة يقارب هذه الظاهرة الكونية، إجهاد وتعب تصبب وعرق حتى تتكشف الحجب عن القصيدة.

2-الكشف: إذا كانت القصيدة التقليدية تعبيرا عن الواقع اعتمادا على الحواس فإن القصيدة المعاصرة تجاوزت ذلك الى محاولة الكشف والتكشف عن الحقيقة اعتمادا على تشظى الذات وتماهيها وحلولها، والكشف ملكة صوفية "تخترق سطوح الاشياء والظواهر للوصول إلى لبابها وجواهرها، والكشف إدراك معنوي"[21] ويظل المتصوف الشاعر عثمان لوصيف في ارتحال دائم وسفر لايتوقف في ارض قصيدته يقول:

وأنا أهرول في سهوب العمر
أبحث عن جراحاتي التى انهمرت
بالأمس مني هل رعاها الانبياء[22]

تكررت افعال الحركة والتنقل في مقطع تكون من ثلاثة اسطر شعرية(أهرول،ابحث ، اطارد) فالشاعر في رحلة صوفية علوية سماوية بحثا عن الحقيقة وكشفها

يقول في موضع اخر:

وهرقت عشقك أنجما وحمائما
تنساب في غبش الضباب
يا أيها الجرح الالهي اشتعل
وخذ الخطاب[23]

ليس هذا فحس تعدى من حالة الترحال إلى حالة العشق والهيام، أعقبها تضحيات وجراحات وفي ظل هذا الافق الكشفي تتحدد معالم السحر الشعري العثماني الذي يحاول بكل ما اوتي من قوة ورباط معنى ارتياد المجهول وتمزيق ستائره،حتى وان وقع اسيره

يقول:

يا ملهب القيتار والأشعار
سرحني براقا كي أطير ...أطير نحوك[24]

ليعترف بعد العذابات سحر نوره وكشفه وطوق نجاته، يقول :

أنت الهوى الكلي أنت النور يغشي ليلنا
أنت السفينة والنجاة[25]

3-وحدة الوجود:يرى أدونيس أن فكرة الاتحاد بالكون وسيلة لتخطي الكائن الى عوالم ثانية خارج الحياة، في مناخ الأحلام، انه طوفان صوفي يغسل الواقع[26]يقول الشاعر بهذا الصدد:

حولني إلى ماء لعلني ابتدي

وتهتدي روحي الى معراجي
يابحر لاتبخل وخذ مني جفوني
أضلعي ...كبدي.. وخذ أوداجي
كان انشطارا هائل هز الدنى
أهو انشطار عناصري؟[27]

يبدو من خلال المقطع الشعري سأم الشاعر ورغبته في الانشطار هذا العالم لايليق به، يترجى البحور الخليلية أن تأخذ جفونه ، كبش فداء وقربة وتودد للخطاب الشعري المتمنع،بل يواصل جوده إلى حد التضحية بكبده، أضلعه... يقول في موضع اخر:

وأنا ..أنا جرس يسافر فى الدنى
يلج السراب مفجرا أمطاره
متلضيا متشظيا
متجددا ...متعددا.. لا يستريح[28]

وهاهو عثمان لوصيف يعلن تشظيه وانشطاره وتماهيه مع الخطاب الجرس

4-الخيال: الخيال عند الصوفي هي لحظة الخلق، والتكوين، "وهذا لايعني ان المتصوف يبذل جهدا في خلق الصور التى يراها لأنه لايعدوا أن يكون مستقبلا لم ا يملى عليه، بعد أن يكون قد جهد واضني ذاته للوصول الى حالة نفسية معينة تؤهله لاستقبال ما يملى عليه، ثم يقوم بتجسيد تلك الصور التى تترائ له إبان مخاض التجربة الصوفية"[29]

يقول الشاعر:

هي طفلتي..هي نصفي المفقود
مذ كان انفصال
يانصفي المفقود إني عائد
من رحلة التيه الطويلة
انني متلهف والبعد طال
فلنجمع الأجزاء
نسندها الى أجزائها
ولننصهر جرحا لجرح
كي نكون قصيدة عماء[30]

بعد التماهي والحلول يصور الشاعر صورته النهائية قصيدة معصومة منزهة، بعد ماكان كائن حي ، تجاوز عالم البشر،محاصرا خطابه بذاته ولذاته وهذا مايعكس صدق تجربته ،يرى محمد غنيمي هلال إن التجربة الشعرية هي" الصورة الكاملة النفسية او الكونية التى

يصورها الشاعر حين يفكر في امر من الامور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه وفيها يرجع الشاعر الى اقتناع ذاتي وإخلاص فني لا الى مجرد مهاراته في صياغة القول ليعبث بالحقائق او يجاري شعور الاخرين لينال رضاهم"[31]

- ✓ يعد عثمان لوصيف واحدا من أهم الشعراء الذين برعوا في الكتابة على الطقوس الصوفية وبدا واضحا وجليا من خلال الاستعانة بالقاموس الصوفي وشطحاته ، فولادة القصيدة عنده شبيهة بمراحل الوجد الصوفي بدءً بالتعلق وصولا لتماهي والاندماج .
- ✓ تخرج القصيدة العثمانية بعد أن إستنزفت طاقة الشاعر وإستلهمت من روحه وجودها .
- ✓ لحظة ولادة القصيدة ليس بالأمر اليسير ولا الهين إنها لحظة إنفصال عن العالم إلى عالم وجدي صوفي روحاني تتعالق فيه الأفكار وتتجسد فيه المعاني وينكشف الحجب بعد رحلة شاقة عصفت كيان الشاعر وأردته معلقا ؛ هذه هي ضرائب الكتابة ورسوماتها الجمركية لتخرج لعالم الكتابة .
- ✓ أفنى عثمان لوصيف حياته وكرسها خدمة للشعر وخرجت قصائده في قالب محكم الصياغة تنم عن إبداعه.

قائمة المصادر والمراجع

[1] ابن منظور، لسان العرب،مادة(كتب)،دار صادر،ط 1، بيروت،لبنان،ص 698.
[2] ينظر: إبراهيم خليل وآخرون ، فن الكتابة والتعبير،،دار المسيرة ،ط 1،عمان ،2008،ص 13،11
[3] أدونيس الثابت والمتحول،دار الساقي ،ص 20.
[4] المرجع نفسه،ص 20
[5] نازل الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان،ط 1981،6،ص 64
[6] يوسف الخال، الحداثة في الشعر،دار الطليعة،بيروت، لبنان،ط 1987،1،ص 60
[7] نزار قباني ، ماهو الشعر،منشورات نزار قبانين بيروت، لبنان،ط 2000،3،ص 88،87
[8] كوليت الخوري ، قصتي مع الكتابة،مجلة العربي، الكويت، العدد 548 ،2004،ص 109
[9] محمود درويش، الجدارية،رياض الريس للكتاب،بيروت ،لبنان،ط 1،ص 55
[10] صلاح بورسيف، الشعر وافق الكتابة، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، دار الأمان، المغرب،2014،ص 117
[11] أدونيس، فاتحة لنهايات القرن،دار العودة،بيروت ،لبنان،ط 1،ص 280
[12] محمد بنيس ،بيان الكتابة ،حداثة السؤال، لمركز الثقافي العربي ،بيروت، لبنان،ط 2 ،1988،،ص 32 .
[13] عبد الله الغذامي، الكتابة ضد الكتابة، دار الآداب ، بيروت، لبنان،ط 1 ،1991،ص 1
[14]، ابن منظور،لسان العرب،مادة(صوف) ،ص 307.
[15] إحسان الهي ظهير،التصوف المنشأ ، المصادر،دار ابن حزم، القاهرة،ط 1 ،2008 ،ص 36
[16] علاء بكر، مختصر تاريخ التصوف، دار ابن الجوزي، القاهرة،ط 1 ،2012،ص 23
[17] جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة، مجلة الفكر،الكويت، العدد 3 ،1997،ص 99
[18] المرجع نفسه،ص 11
[19] عبد الرزاق الكاثاني،معجم اصطلاحات الصوفية،تح:عبد العال شاهين،دار المنار،القاهرة،ط 1 ،1992،ص،65ا
[20] عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء،منشورات البيت،الجزائر،ط 1 ،2008،ص 8
[21] عدنان حسين قاسم،الابداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، جميع الحقوق محفوظة، لبنان ،ط 1 ،1991،ص 226
[22] غثمان لوصيف، مرجع سابق،ص 8
[23] المرجع نفسه،ص 11 .
[24] المرجع نفسه،ص 15.
[25] المرجع نفسه،ص 16،15.
[26] عدنان حسين القاسم،الإبداع مصادره الثقافية،ص 226.
[27] المرجع نفسه 39.
[28] المرجع نفسه،ص 23.
[29] عدنان حسين القاسم، الإبداع ومصاده الثقافية،ص 227.
[30] عثمان لوصيف، جرس لسماوات تحت الماء،ص 64.
[31] محمد غنيمي هلال،النقد الأدبي الحديث،دار العودة،د،ط،1987،ص 363 .

Features of Sufi Writing in the "Jaras El- samawat Taht El- maa" by Othman Loussif

Summary:
This study amis exploring the theorection and pratical aspects of the mystical experience in the loussif and the patiencece of its valleyes in the metn poetry trying experiment,it isa game of hard mazes, experience the least to say that itfeeds on the celles of the ritual of sufsum in its dependence on the terms rituals.
Key words:sufi .experience metn .poetic